

علم ألمانيا وحضارتها

رأى للأستاذ الفرنسى : موريس اينوك

منذ الحرب الكبرى ضعف أنصاف رأى الفرنسى فى علم ألمانيا وحضارتها . وسيظل هذا رأى غير قابل للتغيير مادامت آثار الحرب موجودة . آثار الحرب الادية فى القلوب الجريحة وآثارها المادية فى الاراضى المحرقة . ومن الممكن أن يمضى وقت طويل على فرنسا قبل أن تنسى ضحايا الحرب . على أنه قد أصبح فى كل ركن من أركانها اليوم رمز لذكرى من ذكرياتها

وكذلك رأى الالماني فى علم فرنسا وحضارتها كان غير منصف فى حكمه . وازداد عدم انصافه من بعد الحرب وفى غضونهما ولم تعد دولة منهما تعترف للآخرى بفضل فى العلم أو فى الحضارة . وكل ماتفخر به فرنسا يزدرىه الالماني ويسخرون منه . وكل ما تعده ألمانيا ثمرة اختراعها الفكرى ترجعه فرنسا الى أصل فرنسى

قال الأستاذ موريس اينوك : لقد شاعت فى فرنسا حكمة « باستور » القائلة اذا لم يكن للعلم وطن فان للعالم وطنا ، وهى تؤكد أن الوطنية حق وفرض على العالم . غير أنها تقضى على العلم أيضا بواجب خدمة الوطن الانسانى فان الطريقة التى يستعملها العالم والمبادئ التى يسترشد بها والأشياء التى يستكشفها والقوانين التى يضعها تصير ملكا مشاعا لجميع الشعوب و بمقدار ما يعمل العالم لمجد بلاده يعمل للانسانية

تلك هى الآراء التى درج الناس على قبولها وتعليمها فى كل المدارس ومعاهد العلم فى جميع البلدان المتمدنة . ولكن هناك مع ذلك حالة شاذة وهى أن كل ما يعد حقيقة فى هذا الجانب من نهر الراين ، يعد خطأ فى الجانب الآخر . ذلك لأن العلم الالماني يصدر عن روح قومية بصفة جوهرية ، وأن غرضه السيطرة ، فهو لا يعمل لسعادة لانسانية الحرة . وإنما يعمل لفوز العنصرية الجرمانية .

ولما كان غير منزه عن الغرض فهو يعترض العلم الجزيل النفع للجمعيات التى تخدم الحضارة . وفى رأى الأستاذ اينوك : ان ألمانيا تجهل الحضارة ولا تعرف غير

والكولتور . . . وهى ترمز بهذه الكلمة اللاتينية التى شوهها المنطق الجرماني الى الوطنية الحشنة ومباشرة استعباد العالم للثقل الاعلى الالماني باستخدام القوة العسكرية والموارد التى خلقها العلم الحديث . والعلم الالماني هو الخادم المطواع للكولتور . وفى رأى للدورخ الجليل « فوستل دى كولانج » الذى لم يهتم قط بالتعصب الوطنى وان الالماني يرى الوطن من خلف العلم . . . او على الاقل يتمشى علمه جنباً الى جنب مع المطامع الوطنية للشعب الالماني واحتياجاته . . . على انه من الممكن حساب ان المؤرخ لم يسلم من تأثيرا الذكرى الاخيرة لحوادث سنة ١٨٧٠ .

وقد عاد عالم شاب بعد مضى اثنتين واربعين سنة من معاهدة فرنكفور وقبل عام واحد من حرب سنة ١٩١٤ — الى رأى « فوستل دى كولانج » وبرهن على صدقه تاريخياً فى رسالته لاحراز الدكتوراه فى الآداب . بعنوان « الاصول التصوفية للعلم الماني » . اما ذلك العالم الشاب فهو « رينيه لوت » . وقد ختم رأيه بهذه الملاحظة وهى « ان العلم الالماني يتنافر مع روح العلم » . وقد اصبح الكتاب من بعد نشوب الحرب ذا صبغة حديثة ، وصارت فكرته لاندesh غير الفرنسين الكرماء — وهم كثر — ممن يجهلون الروح الالماني . وهوروح تصوفى .

فيما يسعى العلم الحديث الذى وضعه « بيكون » و« جاليليو » و« ديكارت » فى توضيح ظاهرات الطبيعة وتقسيمها للتمكن من فهمها كل الفهم واخضاعها للقوانين العددية ، لا يرى التصوف ، فى الاشياء غير اتصالها المتبادل وفضائلها الخفية وما بينها من وجوه الارتباط المستترة طبقاً لمبدأ الاتصال العام بين الاشياء . الاتصال بين الانسان والعالم ، وبين العالم والله وبين الله والانسان . وينظر بعض المتصوفة الى ذلك الاتصال على اعتبار انه اتحاد تام وذاتية مطلقة . ان الوثنية لقريبة من الفكر الالماني ولقد كان المتصوفة وأصحاب الكيمياء الخرافية كثيرين فى المانيا اثناء القرون الوسطى ومنذ ذلك الوقت نشأ التقليد الدينى والميتافيزيقى الذى لا يتقطع فى المانيا . وضعف هذا التقليد فى القرن السابع عشر وفى النصف الاول من القرن الثامن عشر . وفى ذلك الزمن كانت المانيا خاضعة لتأثير الفكر الفرنسى . وانما بعد « لينين » تليد الديكارت .

« غير أن ألمانيا ما لبثت أن احييت الفكر الالماني ونفت عنها تقليد فرنسا فى طريقة النظر بالعقل ، وعادت الى مذهب الميتافيزيقا دون أن تراعى ترقى علوم الطبيعة

«ولبت أو هام الكيماويين وبيولوجيه باراسلس» موضوع احترام دون أن تبلغ احد الكفاية
«ولمدرست المانيا الفيزيما الفرنسية والانكليزية بدلتها بصورتين آخر بين نقشت
بهما الفكر الجرمانى . وكانت ترى أن طريقة النظر بالعقل تفقر الطبيعة، فبقيت طريقها
مجردة من الروح. قال «شيانج» -ان الحقيقة غير متاحة الا بالمطلق،

وتنبأ «نوفاليس» الشاعر الالمانى بسيادة الجرمانيسم قال : ان ألمانيا ستعيش
وتنفى الحكمة عند ما تسقط أخواتها اللاتى أوتين الحكمة من قبلها وستبقى وحدها
سيده النار وصاحبة الأمر فيها»

كذلك كان نوفاليس الشاعر الرومانتيكى رسول الجامعة الجرمانية المتطرفة. وقد
كانت النهضة الادبية والوطنية فى ألمانيا متفقة مع النهضة السياسية. وفى فجر القرن
التاسع عشر كانت الدولة البروسية والعلم الالمانى يعملان جنباً الى جنب
رجلى أن عدا. العلماء الالمان الطويل للكيما. التى وضعها «لافوازييه» لا
يخلو من معنى. فقد روى تاريخ ذلك العدا مفصلاً

لا يخفى أن نظرية الفلوجستيك كانت سائدة من قبل لافوازييه وهى النظرية
التى تنسب الى الكيماويين الالمانيين بيشر وستال. ولقد أطلقت لفظة فلوجستيك على
سائل خاص افترض أنه متحد بجميع الاجسام، وأنه يحدث اشتعالا عند فصله. ولم
يعزل أى عالم ذلك السائل، وأنما اخترعوه لكي يفسروا الاشتعال. هذا العنصر
الغريب بلا ثقل إنه ذو وزن سلبى ولقد حل لافوازييه هذا اللغز مستنداً على مبدأ
ثبات المادة وأن لاشئ. يتلاشى ولا شئ. يتجدد

الا أن عقيدة الزوال والخلق الخفيين بقيت متأصلة فى أذهان الالمان وبينما
كانت آراء «لافوازييه» مهيمنة على سائر العالم لم يكن فى المانيا من المنشيعين
لها غير العدد القليل وكان لا بد لهذه الآراء من انتظار العالم ليبجس لكى تشهد فوزها
ولما قدم (ليبيج) باريس كان متشعباً بافكار (شلنج) الميافيزيقية فظهرت
أفكاره عندما تلقى تعاليم (تينار) و(يو) و(دولون) و(جيد لوشاك) وكان
ذلك الاستاذ الكيماوى الاخير سهل المورد مرحاً كان اذا اهتدى الى اكتشاف أو
نجح فى تجربة أخذ بذراع تلميذه وجعل يرقص معه حول طاولة المعمل. ولقد روى
لنام ليبج، نفسه هذه الظاهرة المريحة. على أنه كتب فيما بعد أن جميع الفرنسيين

مهاذرة لا يستعملون في كتاباتهم غير صيغة «أنا» التي تنبو عنها نفسه، ولكن ليس
امن الممكن أن يعترف «العلم الالماني بأنه مدين لفرنسا» ؟

لقد أعطى «لوت» مثلاً آخر للقيود الالمانية ضد الافكار العلمية التي ترجع الى
اصل فرنسي. وخصت تلك القيود العالم «لامارك» الذي تجردت افكاره في توافق
المخلوق الحى بوسطه وبما يرثه من الصفات المكتسبة. ومن شأن هذه الافكار ألا
تتفق مع الفكرة الالمانية المتشبهة بمدى النهائية.

واهم ما في المسألة انما هو اصرار العلماء الالمان المعاصرين على التقليل من شأن
مبادئ «لامارك» على أن «هيكلم» الذي كان لا يميل الى الاعتقاد بالاسباب الخفية
قد وضع «لامارك» في صف «كانت» و«جوته» بين الذين سبقوا الى مذهب
«داروين» وقد بدى له «كانت» في مقام اسمى من «لامارك» لان التفلسف في نظر
كل ألماني ينبغي ان تكون له الكفة الراجعة على الفكرة العلمية. حتى انهم رفعوا مقام
«ستال» وعنصره «الفولوجستك» على حساب «لافوازييه» وانما تنطوى نظرية
«الفولوجستك» على نواة الفكرة الحديثة للطاقة البطيئة. وقد امتدح «اوستوالد»
الكيمياء الروحية المنسوبة الى «جوته» وقال انه بولغ في تقدير «لافوازييه» مذهب
طريقة النظر بالعقل «راسيوناليسم» المنسوبة الى «ستال» !

وليس مذهب التصوف بما لا يتفق مع الروح العملى. وقد كان الالمان يأخذون
الطرائق التي تأتيمهم من الخارج في الوقت الذي يقللون فيه من شأن المخترعات الفرنسية.
ولم يفكر احد في السخر من النظام الحاضر لمعاملهم العلمية—«لابوراتوار»—التي لم
يكمل فيها شيء قدر ما كملت صناعة المفرقات.

إلا أن مؤرخيهم ونقادهم يحتفظون مع ذلك بعبادة العصر المجيد الذي نشأت فيه—
عند مفتتح القرن التاسع عشر—الفكرة الجرمانية. واثبت «ارناك» ان صفة العبقريّة
التي هي في الشعب الالماني كانت تنقص عصر النور وهو عصر فردريك الثاني الذي
يعبرون عنه بلفظة «أوفسكلارونج».

وما زال العلماء الالمان الى اليوم يشيرون فكرة «شلينج» وهي أن من الممكن
التحدث عن العلم الالماني. لان ذلك مسألة متصلة رأساً بالامة الالمانية. هو روح
المانيا وزبدتها وصميمها وهو يمتزج بوجودها نفسه

وأثبت «لوت» أن طرائق العلم التجريبي إنما أخذها الألمان عن البلدان الأخرى لكي ينسبوها إلى أنفسهم حين مكتسبهم من ذلك أفكارهم . وجعلوا من بعدها يمجّدون العلم الألماني وفي الدولة الجرمانية .

ومن شأن هذا التجديد للجرمانيسم حسبما يراه الألمان أنه يغير في نظرنا بعض التغيير من صورة ألمانيا الشعرية التي استكشفها الرومانيسم الفرنسي في كتاب مدام دي ستايل المشهور (« ألمانيا ») . وقد حكم «لوت» حكماً صارماً على هذا الكتاب المجرم الذي يشتم منه رائحة العداء لفرنسا . إن مصادره في عصر نابليون كان عملاً وحشياً أوحاه حكم عادل . فانه في الوقت الذي انحديه الكبرياء الألمانية بالمذهب الحكومي البروسي ، كانت تصورات مدام دي ستايل الخيالية عمياء . وبلا شك كانت عمياء عن اختيار . وفي بداية الحرب كتب الفيلسوف « أميل بوترو » بعض صفحات قوية عن الجرمانيسم جاءت مؤيدة لنظرية «لوت» .

وفي رسالة مؤرخه في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١٤ إلى مدير مجلة « العالمين » صور الفيلسوف الفرنسي الذي ألف من زمن طويل كتب العلماء الألمان - صور الروح الجرمانى ومبدأه في الحرب . وكانت رسالة تحليلية اشتملت على كل المبادئ الألمانية متسلسلة في نظام طبيعي حتى .

وكان « فيخته » في خطبته المشهورة إلى الأمة الألمانية التي ألقاها في جامعة «برلين» في شتاء سنة ١٨٠٧ - ١٨٠٧ قد استثار الشعب الألماني تحت تأثير معركة « بينا » التي انهزم فيها الجيوش الألمانية . وحضه على أن يشعر بنفسه وبروحه الجرمانى الصافى الذي ينبغي أن يسود العالم . لأن « الألمانى في الخارج نظير الخير للشر » . وقد أيد التاريخ رأى « فيخته » فان فوز الشعب دليل رفعتة . ومنذ هزيمة الرومانى « فاروس » أمام جيش البطل الجرمانى « هرمان » (ار مينديوس) في غابة «توتوبورج» في العام التاسع بعد التاريخ المسيحى ، اختار الله الشعب الألماني وتحلى عن « اللاتين » وسلاتهم .

منذ ذلك الوقت اتحد الضمير الجرمانى بالشعور . وصار كل ما هو جرمانى فريداً صادقاً حقاً ولا بد من فوزه . أما المثل الأعلى الاغريقى اللاتينى ، فلم يبق في نظر الألمان سوى ضعف وعجز ، وإن الشعب الألماني هو الشعب الوحيد صاحب

« الكولتور ، السكامل والقوة المطلقة فى الحق الالهى . وان هذا الشعب المختار يجب أن يضم الذى يملك العلم الحقيقى ويجب أن يحوز مع الحد الأقصى من العلم ، الحد الأقصى من القوة !

ولقد صدق الناقد الفرنسى « لاهارب » حين قال : ان الكولتور الالمانى انما هو بربرية مبنية على العلم . »



هذه بعض فقرات من رأى الأستاذ موريس اينوك الذى تولى تلخيص كتاب « العالم » لوت ، . وهو رأى اسمعنا آياه المفكرون الفرنسيون كثيرا أثناء الحرب الكبرى ومن بعد الهدنة . وما يزال يتكرر كلما قام النزاع فى نسبة إحدى الطرائق أو المستكشافات العلمية

ونقول إن التاريخ يثبت أن الفرنسيين سبقوا الالمان الى كثير من الاكتشافات فى الكيمياء والطب وفى علوم الطبيعة . اما الطريقة التجريبية التى ترقى فى فرنسا منذ القرن الثامن عشر فانها فى الأصل اذا كان لابد من الرجوع الى أصلها الأول ، عربية اهتدى اليها العلم العربى فيما اهتدى اليه من الطرائق .

ومهما حاول الالمان أن يقللوا من شأن العلم الفرنسى فى سبيل رفع شأن الكولتور الجرمانى أو المثل الأعلى الجرمانى ، فان التاريخ لا يؤيد آراءهم ولسنا نريد أن نحط من قدر العلم الالمانى الذى عظم شأنه فى العهد الأخير .

ويشهد بعض العلماء الالمان أنفسهم أن العصر الذهبى ، عصر فردريك الكبير كان مجرد أمن الخلق ومن العبقرية ، كما كان لا يزال من وجهة التفكير خاضعاً للفكر الفرنسى . ولم يتحرر حقاً وينفى عن التقاليد إلا فى مفتح القرن التاسع عشر .

أما الروح التصوفى الذى أشار اليه العالم « لوت » فى كتابه فانه شائع فى شعوب الشمال . شائع فى آدابهم وفى علومهم . حتى أن العلم الانكليزى نفسه وهو أقرب إلى الروح العملى من سواه ، لا يكاد يخلو أحياناً من التصوف .

وفضل العلم الفرنسى بل العلم اللاتينى بوجه عام أنه استطاع أن يتحرر من روح العصور الوسطى . ونعود الى تقرير حقيقة أثبتتها التاريخ وهى أن كل المخترعات

الفكرية الحرة صدرت من الشعوب اللاتينية وعلى الأخص فرنسا .

ونذكر أننا قرأنا منذ سنوات بحثاً لأحد المفكرين الألمان ونقلته الصحف الفرنسية دون تعليق وقد سخر فيه بكل ما تفخر به فرنسا في تاريخها المجيد . غير أن المفكر الألماني قد نسي شيئاً آخر وهو أن ألمانيا لا تستطيع أن تذكر الى جانب ما يستحق السخرية في نظرها من ايجاد فرنسا، ما يفوقه من ايجادها التاريخية . أن العلم الألماني في الواقع مدين لفرنسا في شيء كثير .

وليس من شأننا الدفاع عن الثقافة الفرنسية التي يدين لها الكثير من المفكرين في كل أنحاء العالم . إنما نقول أن أية مقارنة بسيطة بين الثقافتين الألمانية والفرنسية تظهر الفارق العظيم بين ما يستحق الفخر حقاً وما هو أهل للسخر

قال الميسورينو في كتابه . التاريخ العام للتأثير الفرنسي في ألمانيا ، أن هذه الدولة الاخير كانت فيما مضى معبودة الأدباء الفرنسيين . ونسب اليها « جان جاك أمبير » كل وجوه الترقى في الحضارة الفرنسية . ونصح فيكتور هيجو فرنسا أن « تتحد » بها . وقال المؤرخ « ميشيليه » لتلاميذ مدرسة المعلمين سنة ١٨٣١ « ليست ألمانيا شيئاً آخر سوى سذاجة وشعر وميتا فيزيقا » .

وكتب « أر نست رنان » : اتى عندما درست ألمانيا ظننت نفسي في هيكل للعبادة غير أن الحرب السبعينية اضعفت من احترام الفرنسيين للفكر الألماني . فان البروسانية وطرانها قد نبهت إلى ضرورة اظهار الحقائق عن العلم الألماني . ذلك العلم الذي كوته طريقة التقليد والمحاكاة حتى أصبح علما ألمانيا . وحتى « هر در » و « ليسينج » قد أيدا أن روح التقليد هي الطابع البارز للخلق الألماني . و بقيت ألمانيا الى ما بعد نهضتها الوطنية تقبس من الفرنسيين المبادئ والافكار والمبتدعات وطرائق الادارة والصيغ الأدبية والفنية . وكل ما للفكر الألماني من فضل أنه وسع فيما ابتدعه الامم الاخرى .

الاسكندرية

عبد الحميد سالم